

الفصل العاشر

البرتغال وبومبال ١٧٠٦ - ٨٢

١ - يوحنا الخامس : ١٧٠٦ - ٥٠

لم اضمحلت البرتغال بعد أيامها المحيطة التي أنجبت ماجلان وفاسكو داجاما وكاموثيس ؟ لقد كان في جسدها وروحها يوماً ما من الهمة ما يكفي لإرتياد نصف الكرة وانشاء المستعمرات الحريثة في ماديرا ، والأزور ، وأمريكا الجنوبية ، وإفريقيا ، ومدغشقر ، والهند وملقا ، وسومطرة : أما الآن ، في القرن الثامن عشر ، فقد باتت نتوءاً ضئيلاً لأوروبا ، مقيدة إلى إنجلترا في التجارة والحرب ، ويغذيها ذهب البرازيل وماسها اللذان يصلان إليها بإذن الأسطول البريطاني . فهل أنهكت قواها لفرط ما قدمت من الرجال البواسل لتملك هذا العدد العديد من الخافر الأمامية القلقة التوازن على أطراف المعمورة ؟ أم لعل تدفق الذهب عليها نزع الحديد من عروقها وأوهن طبقاتها الحاكمة فانتكست من حياة الأقدام والمغامرة إلى حياة اللين والدعة ؟

أجل ، لا بل أنه أوهن من قوة الصناعة أيضاً . فأى جدوى في محاولة تبذرها لتنافس مهرة الصناع أو ملتزمي الصناعة الإنجليز أو الهولنديين أو الفرنسيين في الحرف أو الصناعات ، ما دام في طاقتها شراء ما تستورده من الكساء والغذاء وأسباب الترف والنعم بالذهب المستورد ؟ فأما الأغنياء الذين يتاجرون بالذهب فقد أصبحوا أكثر غنى ، وازادوا فخامة ملبس وبهاء زينة ، وأما الفقراء الذين حيل بينهم وبين ذلك الذهب فقد ظلوا يتردون في فقرهم لا يحثهم على الكد والعرق غير حافز الجوع . وأدخل

تشغيل الرقيق في مزارع كثيرة ، وملاً المتسولون المدن ضجيجاً بصيحاتهم .
وقد كتب عنهم ولیم بكفورد حين سمعهم في ١٧٨٧ بقول « ليس بين
الشحاذين قاطبة من يضارع شحاذى البرتغال قوة رثات ، ووفرة قروح ،
وكثرة حشرات ، وتنوع أسماك ، وترتيب خرق ، ومثابرة لآهَاب . .
أن عددهم لا يحصى ، عمى ، صم . جرب (١) . »

ولم تكن لشبونة يومها هذه المدينة الجميلة التي نعهدنا اليوم . لقد كانت
الكنائس والأديرة ضاية في البهاء ، وقصور النبلاء فسيحة ضخمة ، ولكن
نسبة لا تقل عن عشر السكان بغير مأوى ، وكانت الأزقة الملتوية تفوح منها
رائحة القمامة والقذارة (٢) . ومع ذلك فهنا ، كما في سائر بلاد الجنوب ،
عوض الفقر بأسباب العزاء من الأيام المشمسة ، والأمسيات المزدانة بالنجوم ،
والموسيقى ، والدين ، والنساء المتديينات ذوات العيون التي تعذب الناظرين .
وكان القوم يتدفقون في الشوارع بعد أن تخف وقدوة القيظ لا يعوقهم لدغ
البراغيث في أجسامهم ولا طنين البعوض في الهواء ، فيرقصون ويغنون
ويعزفون على القيثارة ويقتلون للفوز بابتسامة من عذراء .

وكانت المعاهدات (١٦٥٤ ، ١٦٦٢ ، ١٧٠٣) قد قيدت البرتغال
بانجلترا في تكافل عجيب حالف بينهما في الاقتصاد والسياسة الخارجية
وابقاهما في الوقت نفسه أشد ماتكونان تبايناً في العادات وخصومة في العقيدة .
وتعهدت انجلترا بحماية استقلال البرتغال والسماح باستيراد النبيذ البرتغالي
(البورت من أوبورتو) برسم جمركي منخفض جداً . أما البرتغال فتعهدت
بالسماح باستيراد المنسوجات الانجليزية معفاة من الرسوم ، وبالوقوف في
صف انجلترا في أي حرب تنشب . ونظر البرتغاليون إلى الانجليز على أنهم
زنادقة هالكون يملكون أسطولا قوياً ، ونظر الانجليز إلى البرتغال على أنهم
قوم جهالة متعصبون يملكون الموانئ الاستراتيجية . وسيطر رأس المال
البريطاني على الصناعة والتجارة البرتغاليتين . كتب بومبال يشكو من هذه
الأوضاع في شيء من المبالغة : -

« في سنة ١٧٥٤ لم تكد البرتغال تنتج أي شيء يعينها على الاستكفاء .

فثلثا الضروريات المادية تزودها إنجلترا . وغدت إنجلترا السيد المتصرف في تجارتنا كلها، وكان الوكلاء الإنجليز يديرون تجارتنا الخارجية بحملتها . فهم يملكون كل شحنات السفن المتلعة من لشبونة إلى البرازيل ، ومن ثم يملكون الثروة العائدة بديلا عن هذه الشحنات . فلم يكن شيء برتغالياً إلا بالاسم فقط^(٣) .

ومع ذلك وصل إلى يد الحكومة البرتغالية من ذهب المستعمرات وفنستها وأحجارها الكريمة ما يكفي لتمويل مصروفاتها ولجعل الملك مستقلا عن مجلس الشعب وسلطانه الضريبي . وهكذا عاش يوحنا الخامس ، طوال ملكه الذي امتد أربعة وأربعين عاماً ، يرفل في رغد من العيش كأنه أحد سلاطين الشرق ؛ ويلطف من تعدد نسائه بالثقافة ويجمله بالولاء للكنيسة . فوهب الأموال الطائلة أو أقرضها للبابوية ، وتلقى نظير ذلك لقب « صاحب الجلالة العظيم الإيمان » بل نال حتى حق تلاوة القديس دون حق تحويل الخبز والخمر إلى جسد المسيح ودمه . قال فردريك الأكبر « كانت لذاته في الوظائف الكهنوتية ، ومبانيه أديرة ، وجيوشه رهباناً وخليلاته راهبات^(٤) » .

وأثرت الكنيسة بفضل هذا الملك الذي يدين لها بالكثير جدا من الغفرانات . فلكت نصف الأراضي^(٥) ، وشغل اتباعها تسعمائة دار دينية . وبلغ عدد الكهنسين من مختلف الرتب أو الملقين بالمؤسسات الدينية زهاء ٢٠٠٠٠٠ في أمة تعد مليونين من الأنفس . واختص اليسوعيون بمكان الصدارة المرموق سواء في أرض الوطن وفي المستعمرات ، فلقد ساهموا في الفوز بالبرازيل للبرتغال ، وكان الناس — حتى فولتير — مسرورين بإدارتهم لبارجواي ، ولقى نفر منهم الترحيب في البلاط ، وتمكن بعضهم التسلط على الملك . وكان الملك في موكب (عيد القربان) العظيم يحمل أحد أعمدة الظلة التي حمل تحتها بطريرك لشبونة السر المقدس . فلما تعجب الإنجليز لمنظر طريق الموكب يصطف على جانبيه الخند والمصلون وكلهم عارى الرأس جاث على ركبتيه ، قيل لهم في تفسير هذا المشهد أن مثل هذه

المراسم ، وعرض الآنية التفسية والرفات المعجز في الكنائس ، عامل رئيسي في حفظ النظام الاجتماعي بين الفقراء .

وكانت محاكم التفتيش خلال ذلك ساهرة على نقاء عقيدة الأمة ودمائها . وقد كبح يوحنا الخامس من سلطان هذه المؤسسة بحصوله على مرسوم من البابا بندكت الثالث عشر يسمح لسجنائها بأن يدافع عنهم المحامون ويشترط مراجعة الملك لجميع أحكامها^(٦) . ومع ذلك كان لهذه المحكمة من النفوذ والسلطان ما مكنها من إحراق ستة وستين شخصاً في لشبونة على مدى أحد عشر عاماً (١٧٣٢ - ٤٢) من بينهم أنطونيو خوزيه دا سيلفا كبير كتاب العصر المسرحيين البرتغاليين ، الذي أتهم بأنه يضمير اليهودية . وفي يوم إعدامه (١٩ أكتوبر ١٧٣٩) مثلت إحدى مسرحياته في ملهى لشبوني^(٧) .

وأحب يوحنا الخامس الموسيقى والأدب والفن . فاستقدم الممثلين الفرنسيين والموسيقين الإيطاليين إلى عاصمة ملكه . ثم انشأ أكاديمية التاريخ الملكية . ومول القناة الكبرى التي تمتد لشبونة بالماء . وانفق خمسين مليوناً من الفرنكات ليشيد دير مافرا (١٧١٧ - ٣٢) ، الذي يفوق الأسكوريال سعة ، والذي ما زال من أروع ما تحويه شبه الجزيرة الأيبيرية من صروح . ورغبة في تزيين داخل الدير استعار من أسبانياً أعظم مصوري القرن البرتغاليين .

وكان هذا المصور - فرانسيسكو فييرا - البالغ آنذاك الرابعة والثمانين من عمره يمزج العشق والفن في شاعرية إفتنت بها البرتغال بأسرها . ولد بلشبونة في ١٦٩٩ ، ووقع في غرام اجنيز إيلينا دي ليا وهما بعد طفلان . وإذا كان مولعاً بالتصوير أيضاً ، فقد ذهب إلى روما في التاسعة ودرس فيها سبع سنين ، ولما بلغ الخامسة عشرة فاز بالجائزة الأولى في مسابقة قدمتها أكاديمية القديس لوقا . وحين عاد في ١٧١٥ اختاره يوحنا الخامس ليرسم صورة « سر التناول » وروى أنه أتمها في ستة أيام . ثم إنطلق باحثاً عن اجنيز ، فرده عنها أبوها النبيل وحبس الفتاة في دير للراهبات . فلجأ فرانسيسكو إلى الملك ، ولكنه أبى أن يتدخل في الأمر . فقصد روما وحصل على مرسوم

بابوي يلغى نذور اجنيز الديرية ويصرح بزواجه منها . ولكن السلطات البرتغالية تجاهلت المرسوم . فتنكر فرانسيسكو في زى بناء بعد أن عاد إلى لشبونه ، ودخل الدير ونحطف حبيبته وتزوجها . فأطلق عليه أخوها الرصاص ، ولكنه شفى من إصابته وغفر لمهاجمه . وعينه يوحنا الخامس مصورا للبلاط . ولم يكتف بتكليفه تزيين دير مافرا بل وكل إليه تجميل القصور الملكية . وبعد موت اجنيز (١٧٧٥) انفق فرانسيسكو ما بقى من أجله في الأعتكاف الديني وأعمال البر . كم من قصص كهذه تروى مغامرات الروح والدم ضاعت وراء وأجهاث التاريخ ؟

٢ - بومبال واليسوعيون

مات يوحنا الخامس الخامس عام ١٧٥٠ بعد أن قضى ثمانية أعوام يعانى الشلل والعتة ، وبدأ ابنه يوسف الأول (نخوزيه مانويل) حكما حافلا بالأحداث فعين في وزارته وزيراً للحرب والشئون الخارجية يدعى سباستيا ونخوزيه دى كارفالو اى ميللو ، الذى يعرفه التاريخ باسم المركز بومبال ، أعظم وأرهب من حكم البرتغال من الوزراء في أى عهد من عهودها .

كان قد بلغ الحادية والخمسين من عمره حين ارتقى يوسف العرش . تآبى العلم على أيدي اليسوعيين في جامعة كويمبرا ، واكتسب أول شهرته رياضياً وزعياً مشاغباً لعصابة « الموهوك » التى عاثت فساداً في شوارع لشبونه . وفي ١٧٣٣ أغرى النبيلة دونا تريزا دى نورونها بالفرار معه . فتبرأت منها أسرتها ، ثم تبينت موهبته فأعانه على الترقى في حرفة السياسة . وأتته زوجته بثروة صغيرة ، وورث مالا آخر من عم له . وشق طريقه بالوساطة والالحاح والكفاية الواضحة . وفي ١٧٣٩ عين وزيراً مفوضاً لدى لندن ، واعتكفت زوجته في أحد الأديرة حيث ماتت في ١٧٤٥ وخلال السنوات الست التى قضهاها بومبال في لندن درس الاقتصاد ونظام الحكم الانجليزى ولحظ طاعة الكنيسة الانجلكانية للدولة ، ولعله نفى عنه بعض إيمانه الكاثوليكي . ثم عاد إلى لشبونه (١٧٤٤) ، وأوفد مبعوثاً إلى فيينا (١٧٤٥) ، وهناك تزوج

ابنة أخ للمرشال داون للذي كتب له الظفر بالخلود لأنه هزم فردريك مرة، وقد ظلت عروسه الجديدة وفية له طوال ما أحرز من انتصارات وما منى به من هزائم .

وكان يوحنا الخامس عديم الثقة به لأن له « قلباً فظاً »^(٨) . ولأنه « سليل أسرة قاسية شعبة للثأر »^(٩) ولأن فيه القدرة على أن يتحدى ملكاً . ومع ذلك استدعى بومبال إلى أرض الوطن عام ١٧٤٩ ، ورقى إلى منصب الوزارة بفضل تأييد اليسوعيين . وثبته يوسف الأول في وظيفته . وسرعان ما أتاح له ذكاؤه المقرون بالجد والاجتهاد أن يسيطر على الوزارة الجديدة . كتب قائم بالأعمال فرنسي يقول « يمكن اعتبار كارفالو الوزير الأول ، فهو سريع البت وافر النشاط لا يعتريه كلل . ولقد كسب ثقة مولاه الملك ، ولم يظفر بها أحد أكثر منه في جميع شئون السياسة »^(١٠) .

وظهر تفوقه واضحاً جلياً في الزلزال الكبير الذي زلزل لشبونة في أول نوفمبر ١٧٥٥ . ذلك أنه في الساعة ٩،٤٠ صباح عيد جميع القديسين بينما كان معظم السكان يصلون في الكنائس ، زلزلت المدينة بهزات أربعة أحالت نصفها أنقاضاً ، وقتلت أكثر من خمسة عشر ألف شخص ، ودمرت أكثر الكنائس ، وأبقت على معظم المواخير^(١١) وعلى بيت بومبال . وهرع كثير من السكان فرعاً إلى شواطئ تاجه ، ولكن موجة مدبلغ ارتفاعها خمس عشرة قدماً أغرقت مزيداً من الأنفس ، وحطمت السفن الراسية في النهر . وحصدت الحرائق التي اندلعت في أحياء المدينة كلها مزيداً من الأنفس . وفي نهار الفوضى التي ضربت أطنابها بدأ السفلة من الغوغاء يسرقون ويقتلون وهم آمنون . أما الملك الذي لم يفلت هو نفسه من الموت إلا بشق النفس ، فقد طلب إلى وزرائه أن يشيروا عليه بما ينبغي صنعه . ويقال أن بومبال أجاب « علينا أن ندفن الموتى ونقدم الغوث للأحياء » . وأطلق يوسف يده ، واستعمل بومبال سلطته بما تميز به من همة وسرعة . فعين الجند لحفظ النظام وأقام الخيام والمعسكرات لإيواء من باتوا بغير مأوى . وأمر بأن يشنق فوراً كل من وجد يسرق الموتى . ثم حدد أسعار المئون بمالا يزيد على أسعارها

السائدة قبل الزلزال ، وألزم جميع السفن الوافدة أن تفرغ شحناتها من الطعام وتبيعهما بتلك الأسعار . وأعانه تدفق الذهب البرازيلي الذي لم ينضب ، فأشرف على إعادة بناء لشبونة سريعاً بطرق مشجرة عريضة وشوارع جيدة الرصف والإضاءة . وقلب المدينة كما نراه اليوم من صنع المعماريين والمهندسين الذين اشتغلوا تحت إشراف بومبال (١٢) .

وكان لنجاحه في هذه الكارثة التي أضعفت معنوية الأمة الفضل في ترسيخ قدمه في الوزارة واضطلع الآن بعمالين بعيدي الأثر : أولهما تخليص الحكم من سيطرة الكنيسة ، والآخر تحرير الاقتصاد من سيطرة بريطانيا . وتطلبت المهمتان رجلاً أوتي صلابة الفولاذ إلى صفات الوطنية والإباء ومضاء العزيمة التي لا تعرف شفقة أو رحمة .

وإذا كان عداؤه للاكليريكية قد تركز على اليسوعيين فإنما السبب الأول هو أنه توجس منهم إثارة المقاومة لتملك البرتغال للأقاليم البراجوانية التي كان اليسوعيون منذ عام ١٦٠٥ ينظمون فيها أكثر من ١٠٠,٠٠٠ هندي في إحدى وثلاثين مستوطنة ، على أساس شبيه بالأنظمة الشيوعية في خضوع شكلي لأسبانيا (١٣) . وكان الرواد من الأسبان والبرتغال قد سمعوا بوجود الذهب (الأسطوري تماماً) في تربة براجواي ، وشكا التجار من أن الآباء اليسوعيين يحتكرون تجارة المصادر البراجوية ويضيفون الأرباح إلى أموال طائفتهم . ففي ١٧٥٠ فاوض بومبال لعقد معاهدة نزلت البرتغال بمقتضاها لأسبانيا عن مستعمرة سان سكومنتو الغنية (على مصب الريودي لابلاتا) بديلا عن سبع من المستوطنات اليسوعية المجاورة للحدود البرازيلية . واشترطت المعاهدة أن يهاجر الثلاثون ألف هندي المقيمون في هذه المستوطنات إلى أقاليم أخرى ويتخلوا عن الأرض للبرتغال الوافدين . وأمر فرديناند السادس ملك أسبانيا يسوعي براجواي بالرحيل عن المستوطنات وبإصدار الأمر لرعاياهم بالرحيل في هدوء . وزعم اليسوعيون أنهم امتثلوا لهذه الأوامر ، أما الهنود فقاموا في إصرار غاضب عنيف اقتضى التغلب عليه جيشا برتغاليا ثلاث سنين . واتهم بومبال جماعة اليسوعيين بتشجيع هذه المقاومة سرّاً .

فقد العزم على أن ينهى كل مشاركة لليسوعيين في الصناعة والتجارة والحكومة البرتغالية . فلما أدرك يسوعيو البرتغال نيته تضافرت جهودهم للإطاحة به .

وكان قائدهم في هذه الحركة جابريل مالا جريدا ، الذي ولد بمنادجو (على بحيرة كومو) عام ١٦٨٩ ، وتميز على أقرانه في المدرسة بما مارس من عضن يديه حتى يدميها ، وكان يقول أنه بهذه الطريقة يعد نفسه لتحمل آلام الاستشهاد . ثم التحق بجمعية اليسوعيين ، وأبحر إلى البرازيل مبعوثاً . وراح يبشر الهنود في الأدغال بالإنجيل من ١٧٢٤ إلى ١٧٣٥ . وأفلت من الموت عدة مرات - من أكلة لحوم البشر ، ومن التماسيح ، ومن الغرق في السفينة ، ومن المرض . وابتضت لحيته في بواكير كهولته . ونسبت إليه قوى خارقة ، وكانت الجموع المترقبة تتبعه أينما ظهر في مدن البرازيل . وبنى الكنائس والأديرة ، وأسس المدارس اللاهوتية . وفي ١٧٤٧ قدم على لشبونة في طلب المال من الملك يوحنا . وحصل عليه ، ثم أبحر قافلاً إلى البرازيل وأسس المزيد من البيوت الدينية ، وكثيراً ما شارك بيديه في أعمال البناء . وفي ١٧٥٣ عاد إلى لشبونة ثانية ، لأنه كان قد وعد بأن يعد الملكة الأم للقاء ربه . وقد عزا زلزال ١٧٥٥ لخطايا الشعب ، وطالب بإصلاح الأخلاق ، وتنبأ مع غيره من أفراد طائفته بمزيد من الزلازل إن لم تنصلح الأخلاق . وأصبح بيت خلوته الدينية بؤرة للمؤامرات ضد بومبال .

وكان بعض أسر النبلاء ضالعين في هذه المؤامرات . واحتجوا بأن ابن مالك أرض ريني حقير قد سود نفسه على البرتغال ، وقبض على مقاليد حياتهم ومقدراتهم . وكان أحد هذه الأحزاب الأرستقراطية تحت زعامة دوم نخوزيه دي ماسكارينهاس ، دوق أفيرو ، وآخر يرأسه ابن أخى الدوق وهو دوم فرانسيسكو دي أسيز ، مركز طاوره . وكانت زوجة طاوره ، وهي المركيزة دونا ليونور ، إحدى زعميات المجتمع البرتغالي ، تلميذة شديدة التحمس الأب مالا جريدا كثيرة التردد عليه . وكان أكبر أبنائها ، اللوم لويز برناردو ، « مركز طاوره الأصغر » متزوجاً من عمته . فلما رحل

رحل لويز إلى الهند جندياً ، أصبحت هذه « المركيزة الصغيرة » الفاتنة الرائعة الجمال خليعة ليوسف الأول ، وهذا أيضاً لم ينسه قط آل أفرو وطابوره . وافقوا اليسوعيين صادقين على أنه لو أزيح بومبال لتحسن الموقف .

ورد بومبال باقناع يوسف بأن جمعية اليسوعيين تشجع سرّاً المزيد من الثورة في بارجواي ، وأنها لا تتأمر على الوزرة فحسب بل على الملك أيضاً . ففي ١٩ سبتمبر ١٧٥٧ أقصى مرسوم ملكي عن البلاط أبناء اعتراف الأسرة المالكة اليسوعيين . وأمر بومبال ابن عمه ، فرانسيسكو دي المادا أي مندونسا ، المبعوث البرتغالي لدى الفاتيكان ، ألا يضمن بالمال في سبيل تشجيع وتمويل الحزب المناويء لليسوعيين في روما . وفي أكتوبر قسّم المادا لبندكت الرابع عشر قائمة بالتهم الموجهة إلى اليسوعيين : اتهموا بأنهم « ضحوا بكل العهد والواجبات المسيحية ، والدينية ، والطبيعية ، والسياسية في رغبة عمياء . . . في جعل أنفسهم سادة على الحكومة » . وبأن الجمعية مدفوعة « بشره لايشيع لإقتناء الأموال الأجنبية وتكديسها ، بل حتى لإغتصاب أملاك الملوك ^(١٤) » ، وفي أول ابريل ١٧٥٨ أمر البابا الكردينال دي سالدانها ، بطريك لشبونة ، بالتحقيق في هذه التهم . وفي ١٥ مايو نشر سالدانها مرسوماً يعلن أن اليسوعيين البرتغال يمارسون التجارة . « مخالفين بذلك جميع القوانين السماوية والبشرية » ، وأمرهم بالكف عنها . وفي ٧ يونيو ، بتحرير من بومبال في أغلب الظن ، أمرهم بالامتناع عن سماع الاعترافات أو عن الوعظ . وفي يوليو نفى رئيس يسوعى لشبونة إلى مسافة ستين فرسخاً عن القصر الملكي : وخلال ذلك (٣ مايو ١٧٥٨) مات بندكت الرابع عشر ، فعين خليفته كلمنت الثالث عشر لجنة تحقيق أخرى ، قررت أن اليسوعيين براء من التهم التي رماهم بها بومبال ^(١٥) .

ونخامر الناس بعض الشك في أن يوسف الأول سيؤيد وزيره في هجومه على اليسوعيين ، ولكن تحولاً فجائياً في الأحداث دفع الملك دفعاً تاماً إلى صف بومبال . ذلك أن يوسف كان في ليلة الثالث من سبتمبر ١٧٥٨ قافلاً إلى قصره القريب من بيليم من لقاء غرام سرى مع مركيزة

طابوره في أغلب الظن^(١٦) ، وقبيل منتصف الليل انبعث ثلاثة رجال مقنعين من عقد قناة وأطلقوا النار على المركبة دون أن يصيبوا هدفهم ، وأطلق السائق بلواده العنان ، وما هي إلا لحظة حتى انطلقت رصاصتان من كمين آخر ، وأصابت الأولى السائق والأخرى الملك في كتفه وذراعه اليمينين . وقررت محكمة تحقيق لاحقة أن كميناً ثالثاً أعده أفراد من آل طابوره كان ينتظر المركبة على مسافة أبعد على الطريق العام إلى بيليم . ولكن يوسف أمر السائق أن يحدد عن الطريق الرئيسي ويقصد بيت جراح الملك ، الذي ضمه جراح الرجلين . ولعل الأحداث التالية التي أحدثت ضجة في جميع أرجاء أوروبا ، كانت تختلف كل الاختلاف لونها كمين الثالث في الاغتيال المبيت .

وتصرف بومبال بتدبر ودهاء . فنفتت أشاعات الهجوم رسمياً ، وعزى اعتكاف الملك المؤقت إلى كهوة كباها ، وظل جواسيس الوزير ثلاثة أشهر يجمعون الأدلة . فوجدوا رجلاً شهد بأن انطونيو فريرا استعار بندقية منه في ٣ أغسطس وردها إليه في ٨ سبتمبر . وقيل أن رجلاً آخر قال أن فريرا استعار مسدساً منه في ٣ سبتمبر ورده بعد أيام . وقال الشاهدان أن فريرا في خدمة دوق أفيرو وشهد سلفادور دوراو ؛ وهو خادم في بيليم ، بأنه في ليلة الهجوم ، بينما كان في لقاء خارج بيت أفيرو ، سمع عفواً أفراداً من أسرة أفيرو عائدين من مغامرة ليلية .

وأعد بومبال لقضيته في حيلة وجرأة . فضرب صفحاً عن الإجراء الذي يتطلبه القانون ، والذي كان سيحاكم الأشراف المشبوهين أمام محكمة من كبار النبلاء ؛ ومحكمة كهذه لن تدينهم أبداً . وبدلاً من هذا ، أصدر الملك في ٩ ديسمبر مرسومين ، وكان هذا الإصدار أول كشف علني عن الجريمة : فعين المرسوم الأول الدكتور بديرو جونسا لفيس بريرا قاضياً يرأس محكمة خاصة بقضايا الخيانة العظمى ، وأمره الآخر بأن يعيط اللثام عن المستوالين عن محاولة قتل الملك ويقبض عليهم ويعدمهم . ونحول جونسا لفيس بريرا سلطة أغفال جميع الأشكال المألوفة للمحاكمات ، وأمرت المحكمة

بتنفيذ أحكامها يوم إعلانها . وأضاف بومبال إلى المراسيم بياناً رسمياً علق في جميع أرجاء المدينة ، يروى أحداث ٣ سبتمبر ، ويعدهم كإفاعة أى شخص يقدم الأدلة التي تعين على القبض على القتلة (١٧) .

وفي ١٣ ديسمبر قبض ١٣ موظفاً حكومياً على دوق أفيرو ، وعلى ابنه المركزي جوفيا البالغ من العمر ستة عشر عاماً ، وعلى خادم أنطونيو فريرا ، وعلى مركيزى طاوره الأب والابن ، وعلى مركيزة طاورة الأم ، وعلى كل خدام الأسرتين ، وعلى خمسة نبلاء آخرين . وطوق الجند في ذلك اليوم جميع الكليات اليسوعية ، وأودع السجن مالا جريداً واثنى عشر آخرون من زعماء اليسوعيين . وتعجلاً للفصل في الأمر ، أباح مرسوم ملكى صدر في ٢٠ ديسمبر (بخلاف ما جرى عليه للعرف في البرتغال) استعمال التعذيب لإستخلاص الاعترافات من المتهمين . وفحص خمسون سجينة بالتعذيب أو التهديد بالتعذيب . وورطت عدة اعترافات دوق أفيرو ، واعترف هو نفسه بذنبه تحت وطأة التعذيب ، واعترف أنطونيو فريرا أنه أطلق النار على المركبة ، ولكنه أفسم أنه لم يكن يعلم أن ضحيته المحتمل هو الملك . وتحت وطأة التعذيب عرض عدة خدام تلك الأسرة بحملتها للخطر ، واعترف المركزي الابن باشتراكه ، أما المركزي الأب الذى عذب حتى كاد بلفظ أنفاسه فقد أنكر أنه مذنب ، وكان بومبسال ذاته يحضر فحص الشهود والمسجونين . وكان قد أمر بتفتيش البريد ، فزعم الآن أنه وجد ضمنه أربعاً وعشرين رسالة كتبها دوق أفيرو ، وعدة أفراد من آل طاوره . ومالا جريداً وغيره من اليسوعيين ، لا حاطة أصدقائهم أو أقربائهم في النزائل بالمحاولة الفاشلة ، واعدائهم بمزيد من الجهود لقلب الحكومة . وفي ٤ يناير ١٧٥٩ عين الملك الدكتور أوزيبوتافاريس دى سكوبرا للدفاع عن المتهمين . ودفع سكوبرا بأن الاعترافات التي انتزعت تحت التعذيب عديمة القيمة في الدلالة على الجريمة ، وأن جميع النبلاء المتهمين يستطيعون اثبات غيابهم ليلة الجريمة . على أن المحكمة قضت بأن الدفاع غير مقنع . ورأت أن الرسائل المعترضة صحيحة وأنها تؤيد الاعترافات ، وفي ١٢ يناير حكمت المحكمة بأن جميع المتهمين مذنبون .

وأعدم تسعة منهم في ١٣ يناير في ميدان بيليم العام . وأول من تقرر إعدامه كان مركيزة طابورة الأم . فانحنى الجلاد ليوثق قدميها وهي على المقصلة فدفعته قائلة « لا تمسني إلا لتقتلني »^(١٨) وبعد أن أكرهت على رؤية العدة التي سيموت بها زوجها وابناها - وهي دولاب التعذيب ، والمطرقة والحطب - ضرب عنقها . وحطم ولداها على الدولاب ثم شتقاً ، وظلت جثتها على المشنقة حين صعد إليها دوق أفيرو ومركيز طابوره الأب . وذاقاً مرارة الضربات المحطمة ذاتها ، وترك الدوق ليطول عذابه حتى تم إعدام آخر المتهمين - وهو أنطونيو فريرا الذي أحرق حياً . ثم أحرقت جميع الجثث وذر رمادها في نهر تاجه . وما زال الجدل قائماً في البرتغال حول هؤلاء النبلاء ، هل عمدوا حقاً قتل الملك أم لا ؟ هذا مع التسليم بعدائهم لبومبال .

أكان اليسوعيون ضالعين في تلك المحاولة ؟ لم يكن هناك شك في أن مالا جريداً في غضبته المضربه كان قد تنبأ بسقوط بومبال وبموت الملك وشيكا ،^(١٩) ولم يكن هناك شك في أنه هو وآخرون من اليسوعيين كانوا قد اجتمعوا مرات بأعداء الوزير من الأشراف . وكان قد دل ضمناً على علمه بمؤامرة ما بكتابته إلى إحدى نبيلات البلاط يرجوها أن تنبه يوسف إلى الخدر من خطر وشيك . فلما سئل وهو في السجن كيف علم بهذا الخطر أجاب في « كرسى الاعتراف » .^(٢٠) وفي غير هذا (كما يقول مؤرخ من خصوم اليسوعيين) « ليس هناك دليل إيجابي يربط اليسوعيين بهذا الاعتداء »^(٢١) . ولكن بومبال اتهمهم بإثارة حلفائهم بوعظهم وتعاليمهم إثارة دفعهم إلى محاولة الاغتيال . وأقنع الملك أن الموقف يتيح للملكية الفرصة لتعزيز قوتها إزاء الكنيسة . وعليه ففي ١٩ يناير أصدر يوسف مراسيم بضم جميع ممتلكات اليسوعيين في المملكة ، وبإلزام جميع اليسوعيين بيوتهم أو مدارسهم حتى يفصل البابا في التهم الموجهة إليهم . واستعمل بومبال أثناء ذلك مطبعة الحكومة لطبع - ويوزع عماله على نطاق واسع في الداخل والخارج - كراسات تبسط الحجج التي تدين الأشراف واليسوعيين ، وكانت هذه فيما يبدو أول مرة استخدمت فيها حكومة من الحكومات المطبعة

لتفسير تصرفاتها للأمم الأخرى . وربما كان لهذه المنشورات بعض الأثر في
المعاونة على طرد اليسوعيين من فرنسا وأسبانيا .

وفي صيف ١٧٥٩ استأذن بومبال كلمنت الثالث عشر في تقديم اليسوعيين
المعتقلين للمحاكمة أمام محكمة الخيانة العظمى ، وزاد بالاقتراح بأن يحاكم
جميع الكنسيين المتهمين بجرائم ضد الدولة ، منذ الآن ، أمام محاكمة مدنية
لاكنسية . وصرحت رسالة شخصية من يوسف إلى البابا بعزم الملك على
طرد اليسوعيين من البرتغال ، وأعربت عن الأمل في أن يوافق البابا على
هذا الإجراء بإعتباره إجراء تبرره تصرفاتهم ، وضروريا لحماية الملكية .
وصدمت هذه الرسائل كلمنت ، ولكنه خشى أن قاومها صراحة أن يقنع
بومبال الملك بقطع الصلات جميعها بين الكنيسة البرتغالية والبابوية . وتذكر
ما فعله هنري الثامن عشر في إنجلترا ، وكان يعرف أن فرنسا أيضاً تزداد
عداء لجماعة اليسوعيين ، ففي ١١ أغسطس بعث بالإذن بمحاكمة اليسوعيين
أمام المحكمة المدنية ، ولكنه قصر بوضوح موافقته على تلك الحالة بعينها .
ثم وجه إلى الملك نداء شخصياً يدعو للرافة بالقساوسة المتهمين ، وذكر
يوسف بانجازات هذه الطائفة الماضية ، وأعرب عن رجائه ألا يؤخذ
جميع اليسوعيين البرتغاليين بجريرة فئة قليلة منهم .

ولكن نداء البابا فشل . ففي ٣ سبتمبر ١٧٥٩ - وكان اليوم ذكرى
الاغتيال المبين - أصدر الملك مرسوماً ضمنه قائمة طويلة بجرائم منسوبة
لليسوعيين ، وأمر بما يأتي :

« أن هؤلاء الرهبان ، نظراً إلى فسادهم وسقوطهم المؤسف بعيداً عن
رهبنتهم المقدسة ، ولما أصابهم من عجز واضح عن العودة إلى شعائرها
بسبب هذه الرذائل البشعة المتأصلة ، يجب أن ينفوا نفياً حقيقياً فعلاً . .
وأن يحاكموا ويطردوا من جميع أملاك جلالته ، باعتبارهم عصاة سيئى
السمعة وخونة ، وأعداء ، اعتدوا على شخصه الملكى وعلى مملكته . .
ويقتضى الأمر ألا يقبلهم أى شخص كائناً ما كانت مكانته أو وضعه فى أى

من ممتلكاته وألا يتصل بهم بتاتا سواء بالحديث أو المراسلة ، وإلا كان جزاؤه الموت الذى لا رجوع فيه (٢٢) .

واستثنى من المرسوم اليسوعيون الذين لم يندروا أنفسهم النذر الوثيق للرهينة ، والذين يجب عليهم أن يلتمسوا إعفاءهم من نذورهم الأولية . وصادرت الدولة ثروة اليسوعيين كلها ، ومنع المنفيون من أن يأخذوا معهم غير ملابسهم الشخصية (٢٣) . واقتيدوا من جميع أرجاء البرتغال فى مركبات أوسيرا على الأقدام إلى سفن أقلتهم إلى ايطاليا . وتم ترحيلهم على هذا النحو من البرازيل وغيرها من الممتلكات البرتغالية . ووصلت أول شحنة من المنفيين إلى تشيفيتافكيا فى ٢٤ أكتوبر ، ورثى لحالهم حتى ممثل بومبال هناك . كان بعضهم ضعيفا لكبره ، وبعضهم يكاد يتضور جوعا ، وبعضهم مات فى الطريق . ورتب قائد الجماعة ، لورنتسوريكى ، استقبال الأحياء منهم فى بيوت يسوعية فى ايطاليا ، وشارك الأخوة الدومنيكان فى استضافتهم . وفى ١٧ يونيو ١٧٦٠ أوقفت الحكومة البرتغالية العلاقات الدبلوماسية مع الفاتيكان .

وبدا نصر بومبال نصراً مؤزراً ، ولكنه كان عابياً بأنه نصر لاتبجبه الأمة ، وأفضى به الشعور بعدم الأمان إلى توسيع سلطته إلى الدكتاتورية الكاملة ، فبدأ حكماً من الاستبدادية والارهاب حتى عام ١٧٧٧ . وكان جواسيسه يبلغونه بكل ما يكشفونه من ألوان المقاومة لسياساته أو أساليبه ، وسرعان ما اكتظت سجون لشبونة بالمسجونين السياسيين . وقبض على الكثيرين من الأشراف والكهنة لإتهامهم بمؤامرات جديدة على الملك ، أو باشتراكهم فى المؤامرة القديمة . وأصبحت قلعة جنكيرا ، المتوسطة الموقع بين لشبونه وبيليم ، سجناً خاصاً للأشراف زج فيه كثير منهم حتى قضوا نحبهم . وفى سجون أخرى أودع اليسوعيون المحلوبون من المستعمرات والمتهمون بمقاومة الحكومة - وظل بعضهم نزيلها تسعة عشر عاماً .

أما مالا جريدا فقد ظل يندوى فى سجنه اثنين وثلاثين شهرا قبل أن

يمثل أمام المحكمة . وسلي الشيخ سجنه بتأليفه كتاب « حياة القديسة حنه البطولية ، أم مريم ، أملتها القديسة حنه ذاتها للأب المبجل ما لاجريدا » ، وصور المخطوط بأمر بومبال ، وقد وجد فيه عدة سخافات يمكن أن ترصف بالهرطقة : فقد قال مالاجريدا أن القديسة حنه حبل بها كما حبل بمريم ، دون أن تلوثها الخطيئة الأصلية ، وأنها كانت تتكلم وتبكي في بطن أمها^(٢٤) . وبعد أن عين بومبال أخاه بول دي كارفالو رئيساً لديوان التفتيش في البرتغال ، أمر بأن يستدعى مالاجريدا للمثول أمامه ، وكتب بيده ورقة اتهمتهم اليسوعيين بالجنح ، والرياء ، والدجل ، وانتهاك المقدسات ، وبتهديدهم الملك بالتنبؤ مراراً بموته . وإذا كان مالاجريدا - الذي بلغ الآن الثانية والسبعين - قد أصبح نصف مخبول لشدة ما كابد من عذاب ، فقد أخبر قضاة التفتيش بأنه تكلم مع القديس أغناطيوس لويولا والقديسه تريزا^(٢٥) . وأراد قاض منهم أن يقف المحاكمة اشفاقاً على الشيخ فحى بأمر بومبال . وفي ١٢ يناير ١٧٦١ حكمت المحكمة المقدسة بأن مالاجريدا مذنب بالهرطقة ، والتجديف ، والضلال ، وبخداع الشعب بما زعم من اعلانات إلهية له . ومد في أجله ثمانية شهور آخر . وفي ٢٠ سبتمبر سيق إلى مشنقة في البراساروسيو ، فشقق ، وأحرق مشدوداً إلى خازوق . وقال لويس الخامس عشر معقبا بعد سماعه بالإعدام « لكأني أحرقت الشيخ المخبول نزيل مستشفى البتيت (ميزون) الذي يزعم أنه الله الآب^(٢٦) . وكان رأى فولتير في الحادث وهو يسجله « أنه حماقة وسخف مقرونان بشرغاية في البشاعة^(٢٧) » .

ولم يرق جماعة الفلاسفة الفرنسيين ما طرأ على بومبال من تطور ، بعد أن كان رأيهم فيه في ١٧٥٨ أنه « مستبد مستنير » . لقد رحبوا بالاطاحة باليسوعيين ، ولكنهم استنكروا الأساليب التعسفية التي انتهجها الدكتاتور ، والنغمة العنيفة التي سرت في نشراته ، والوحشية التي لوثت عقوباته . وصدمتهم معاملة اليسوعيين خلال ترحيلهم ، واعدام الأسر العريقة بالجملة ، والمعاملة غير الإنسانية التي لقيها مالاجريدا . على أنه لم

يصلنا أى سجل يثبت احتجاجهم على حبس أسقف كويمبرا ثمانى ستوات لأنه أدان لجنة بومبال للرقابة على المطبوعات التى سمحت بتداول مؤلفات متطرفه ، كقاموس فولتير الفلسفى وعقد روسو الاجتماعى .

بيد أن بومبال نفسه لم يبشر بهرطقات ، وكان يختلف إلى القديس بانتظام . ولم يكن هدفه القضاء على الكنيسة بل إخضاعها للملك ، فلما وافق كلمنت الرابع عشر عام ١٧٧٠ على السماح للحكومة بالترشيح لمناصب الأسقفية ، اصطالح مع الفاتيكان : وأسعدت يوسف الأول - وقد دنا أجه - فكرة الظفر بعد هذا كله بكامل البركات الكهنوتية حين يموت ، وبعث البابا بقبعة الكردينالية إلى بول أخى بومبال ، وأتحف بومبال نفسه بخاتم يحمل صورة البابا ، ومنمنمة إطارها من الماس ، ورفات كامل لأربعة قديسين .

٣ - بومبال المصالح

وترك الدكتاتور أثناء ذلك بصمته على اقتصاد البرتغال وإدارتها وحياتها الثقافية . وأعاد تنظيم الجيش بمساعدة الضباط الانجليز والألمان ، وقد صد هذا الجيش غزوا أسبانيا فى حرب السنين السبع . وانتهج ما انتهجه ريشليو فى فرنسة القرن السابع عشر ، فحد من سلطان الارستقراطية الممزق للأمة ، ومركز الحكومة فى ملكية تستطيع أن تمنح هذه الأمة الوحدة السياسية ، والتطور التعليمى ، وبعض الحماية من تسلط الكنيسة وكف النبلاء بعد اعدام آل طاپوره عن التآمر على الملك ، ونخضع الأكليروس للدولة بعد طرد اليسوعيين . وفى فترة الجفوة مع الفاتيكان كان بومبال يعين الأساقفة ، وكان أساقفته يرسمون القساوسة دون الرجوع إلى روما . وخدم مرسوم ملكى من اقتناء الكنيسة للأرض ، وقيد حرية الرعايا البرتغاليين فى تحميل تركاتهم بوصايا لإقامة القداديس^(١٨) وأغلق الكثير من الأديرة وحظر على الباقى منها قبول رهبان جدد تقل أعمارهم عن الخامسة والعشرين . وأخضع ديوان

التفتيش لإشراف الحكومة . وحوّلت محكمته إلى محكمة عامة خاضعة للقواعد التي تخضع لها محاكم الدولة ، وجردت من سلطات الرقابة على المطبوعات ، وألغى ما جرت عليه من تمييز بين قدامى المسيحيين وجددهم (أى اليهود أو المغاربة الذين دخلوا في المسيحية وذريتهم) ، لأن بومبال افترض أن في دماء معظم الأسبان والبرتغال الآن عرقاً سامياً^(٢٩) . وبمقتضى مرسوم صدر في ٢٥ مايو ١٧٧٣ أصبح جميع الرعايا البرتغال صالحين للاختيار للمناصب المدنية والعسكرية والكنسية^(٣٠) ، ولم تحرق محكمة التفتيش انساناً بعد احراق مالا جريدا عام ١٧٦١^(٣١) .

في تلك السنة ألغى بومبال ثلاثة أرباع الوظائف الصغيرة التي كانت تعوق سير القضاء ، ويسرت الطريق إلى المحاكم وجعل التقاضي أقل كلفه . وفي ١٧٦١ أعاد تنظيم الخزانة ، وألزمها بموازنة حساباتها كل أسبوع ، وأمر بأن تراجع إيرادات ومصروفات البلديات كل سنة ، وحقق بعض التقدم في أشد الإصلاحات كلها عسرا - وهو خفض عدد الموظفين في البلاط الملكي والحد من الاسراف في نفقاته . فتخلص من الثمانين طاهيا الذين كانوا يطعمون يوحنا الخامس وبطانته ، واضطر يوسف الأول أن يقنع بعشرين فقط . وبمقتضى مرسوم صدر في ٢٥ مايو ١٧٧٣ ألغى الرق في الواقع في البرتغال ولكن سمح باستمراره في المستعمرات .

وامتدت يد المصلح إلى كل ركن . فبذل الدعم الحكومي للزراعة ومصايد الأسماك ، وأدخل دودة القز في المقاطعات الشمالية . وأنشأ الفواخير ، ومصانع الزجاج ، ومصانع القطن والصوف والورق ، لينهى اعتماد البرتغال على استيراد هذه الحاصلات من الخارج . وألغى المكوس الداخلية في انتقال السلع ، وأقام التجارة الحرة بين البرتغال ومستعمراتها الأمريكية . وأسس كلية للتجارة يدرّب فيها الرجال على إدارة الأعمال . ونظم وأعلن بالمال الشركات لتتلقى تجارة البرتغال من الأجانب الذين يتجرون فيها وينقلونها ، وفي هذا فشل - أو فشلت البرتغال - لأن

تجارة البرتغال في ١٧٨٠ كان أكثرها لا يزال في أيدي الأجانب لاسيما البريطانيين .

واقضى طرد اليسوعيين بناء التعليم من جديد بناء شاملا . فشرت في البلاد المدارس الأولية والثانوية الجديدة التي بلغ عددها ٨٣٧ - وحولت الكلية اليسوعية في لشبونة إلى كلية للإشراف يديرها العلمانيون . ووسع منهج الدراسة في كويمبرا وأضيفت إليه مقررات في العلوم ، وأقنع بومبال الملك بتشييد دار للاوبرا ودعوة المغنين الايطاليين لقيادة الفرق ، وفي ١٧٥٧ أسس « أركاديا لشبونة » لتشجيع الأدب .

وحظى الأدب البرتغالي طوال نصف قرن مثير (١٧٥٥ - ١٨٠٥) بحرية نسبية في الأفكار والأشكال . وبعد أن حرر نفسه من النماذج الإيطالية ، أقر بسحر فرنسا ، وأحس بنسائم تهب عليه من حركة التنوير . وظفر انطونيو دينيز داكروز أي سيلفا بالشهرة في وطنه كله بكتابة هجاء سماه « أو هسوبي » (١٧٧٢) ، ووصف فيه في ثمانية أقسام شجارا بين أسقف وكبير كهنة ، وترجم خواو أنستاسيودا كونها بوب فولتير ، وعلى هذه الترجمة أدانته محكمة التفتيش (١٧٧٨) عقب سقوط بومبال . وأولع فرانسيسكو مانويل دوناسكيمينتو بالكتب ، وكان ابن عامل في تفريغ السفن وشحتها ، وأصبح قطبا لجماعة تمردت على الاكاديمية الاركادية لأنها عائق لتطور الشعر القومي . وفي ١٧٧٨ أمرت محكمة التفتيش بالقبض عليه (مغتنة ثانية فرصة سقوط بومبال) متهمة اياه بالولع بالفلاسفة المحدثين من اتباع العقل الطبيعي « ففر إلى فرنسا ، حيث انفق تقريبا كل سنه الواحدة والأربعين الباقية من عمره ، وهناك كتب معظم قصائده التي تتقد بحب الحرية والديمقراطية ، وفيها قصيده غنائية « لحزية الولايات المتحدة واستقلالها » وقد عدّه أنصاره أماما للشعر البرتغالي لايمزه فيه غير كاموثيس . وحوى مجلد في قصائد الحب يسمى « أماريليا » أرشق وأرخم شعر العصر ، الذي خلفه توماز أنطونيو جونزاجا الذي عانى السجن (١٧٨٥ - ٨٨) بتهمة التآمر السياسي ومات في المنفى ، أما خوزيه

أجوستينودى ما سيدو ، الراهب الأوغسطينى الذى جرد لفسقه ، فقد اتخذ فى جرأة ، لقصيدته « أو أورينتى » الموضوع الذى اتخذه من قبل كاموثيس - وهو رحلة فاسكودا جاما إلى الهند . وكان يرى قصيدته أعظم من اللويزياده « والإلياذه » ولكنهم يؤكدون أنها عمل كئيب . وأطرف منها هجاء كتبه فى ستة أقسام « أوس بوروس » شهر فيه ماسيدو صراحة برجال ونساء من جميع المراتب ، الأحياء منهم والأموات . وكان ألد خصومه ما نويل ماريا باربوزادى بوساجى ، الذى سجنته محكمة التفتيش (١٧٩٧) بتهمة إذاعة الأفكار الفولتيرية فى شعره وتمثلياته . وقد رده لإعدام مارى انطوانيت إلى المحافظة فى الدين والسياسة ، فاستعاد تدينه أيام الشباب ، ورأى فى البعوضة دليلاً على وجود الله (٣٢) .

أما الحدث العظيم فى تاريخ الفن فى حكم بومبال فهو التمثال الذى صنع ليوسف الأول ، والذى مازال قائماً فى ميدان الحصان الأسود بلبشونة . وقد صممه يواكيم مكادو دى كاسترو ، وصبه بالبرونز ترتولوميو دا كوستا وهو يمثل الملك راكباً جواداً مطها ، ظافراً فوق أفاعى ترمز إلى القوى الشريرة التى غلبها فى حكمه . وجعل بومبال من إزاحة الستار عن هذا الأثر (٦ يونيو ١٧٧٥) احتفالاً بوازرته المنتصرة . فاصطف جنود الجيش فى الميدان ، واجتمع رجال السلك السياسى ، والقضاء ، ومجلس الشيوخ وغيرهم من كبار القوم مرتدين الملابس الرسمية ، ثم أقيمت الحاشية ، ثم الملك والملكة ، وأخيراً تقدم بومبال وأزاح الستار عن التماثيل والقاعدة الضخمة التى صورت ميدالية عليها الوزير لابساً صليب المسيح . وفهم الكل إلا الملك أن الموضوع الحقيقى للاحتفال هو بومبال .

وبعد أيام من إزاحة الستار أرسل إلى يوسف الأول وصفا وردى اللون للتقدم الذى حققه بومبال منذ ١٧٥٩ : نشر التعليم والإمام بالقراءة والكتابة ، نمو الصناعة والتجارة ، وتطور الأدب والفن ، وارتفاع مستوى المعيشة بصفة عامة ، على أن توخى الصدق لا بد أن يختزل الكثير من وصفه هذا ، فالصناعة والتجارة كانتا تنموان ، ولكن فى بطء شديد ،

وكلتا تعانيان المصاعب المالية ، أما الفنون فركدت ، وكان نصف لشبونة لا يزال (١٧٧٤) في الخرائب التي سببها زلزال ١٧٥٥ . وكان تعلق الشعب الفطرى بأهداب الدين يعيد سلطان الكنيسة إلى سابق عهده . وكان صلف بومبال وأساليبه الدكتاتورية تخلق له أعداء جدداً كل يوم . وكان قد اقتنى لنفسه ولأقربائه ثروة طائلة وبنى لنفسه قصرأ غالى التكلفة . ولم تكف توجود أسرة نبيلة فى المملكة بغير عضو محبوب من أعضائها يندوى فى غياهب السجن . وكان الناس فى طرل البرتغال وعرضها يصلون ويتضرعون إلى الله سرا بأن يسقط بومبال عن عرشه .

٤ - انتصار الماسونى

فى سنة ١٧٧٥ بلغ الملك الستين . وكانت العلل والخليلات قد أشبته قبل أوانه ، وراح ينفق الساعات متأملاً فى الحظيئة والموت . وسأل نفسه أكان على حق فى انتهاج سياسات وزيره ، وهل كان منصفاً لليسوعيين ؟ ثم ماخطب أولئك الأشراف والقساوسة نزلاء السجنون ؟ بوده أن يغفر لهم وهو يطلب الآن المغفرة لنفسه . ولكن أنى له أن يذكر فكرة كهذه لبومبال الذى لا تلين له قناة ، وماذا تراه صانعاً بغير بومبال ؟ وفى ١٢ نوفمبر ١٧٧٦ أصيب بنوبة فالج ، وكان البلاط يغتبط توقعاً لحكم ملك جديد ووزارة جديدة . وكانت وريثة العرش ابنته ماريا فرنسيسكا التى كانت زوجاً لأخيه بدرو . وكانت امرأة صالحة ، وزوجاً وأما صالحة ، وإنساناً عطوفاً باراً ، ولكنها كانت إلى ذلك كاثوليكية غيوراً ، كرهت عداء بومبال للأكليروس كرها حملها على ترك البلاط لتعيش فى هدوء مع بدرو فى كيلود على أميال من العاصمة . وأحاط الدبلوماسيون الأجانب بحكوماتهم بأن تتوقع انقلاباً وشيكاً فى السياسات البرتغالية .

وفى ١٨ نوفمبر تناول الملك الأسرار المقدسة ، وفى ٢٩ نوفمبر أصبحت ماريا وصية على العرش . وكان من أول أفعالها إنهاء سجن أسقف كومبرا ، ورد الخبر البالغ من العمر أربعة وسبعين عاماً إلى كرسيه وسط مظاهر الفرح

الشاملة تقريباً . ورأى بومبال سلطانه يتضائل ، ولحظ في ندرقائمة أن أفراد الحاشية الذين كانوا بالأمس اتباعاً أذلاء له ، يرونه الآن وقد قضى على نفوذه السياسى . وفي عمل أخير من أعمال الاستبداد انتقم انتقاماً وحشياً من قرية تريفاريا التي عارض أهلها - وكانوا صيادى سمك - تجنيد أبنائهم بالقوة ، فأمر فصيلة من الجنود بأن يحرقوا القرية : فأحرقوها بإلقاء المشاعل المتهبة من نوافذ الأكواخ الحشبية في ظلام الليل (٢٣ يناير ١٧٧٧) .

وفي ٢٤ فبراير مات يوسف الأول ، وأصبحت الوصية الآن للملكة ماريا الأولى (حكمت ١٧٧٧ - ١٨١٦) ، وأصبح زوجها الملك بدرو الثالث (١٧٧٧ - ٨٦) . وكان بدرو رجلاً ضعيف العقل ، واستغرقت ماريا في التقوى وأعمال البر . وسرعان ما استعاد الدين سلطانه ، وقد كان نصف حياة الشعب البرتغالى . واستأنفت محكمة التفتيش نشاطها في الرقابة وفتح الهرطقة . وأرسلت الملكة ماريا إلى البابوية أربعين ألف جنيه لرد بعض ما أنفقت في رعاية اليسوعيين المنفيين . وفي غداة دفن يوسف أمرت الملكة بالإفراج عن ثمانمائة سجين ، وكان أكثرهم قد سجنه بومبال لمعارضته سياسته . وكان كثير منهم قد قضى عشرين عاماً في غياهب السجون ، فلما خرجوا لم تحتل عيونهم ضوء الشمس وكانوا كلهم تقريباً في أسهال بالية ، وبدا الكثيرون منهم في ضعفى سنهم ، وكان المئات من السجناء قد قضوا نجبتهم قى سجونهم . ولم يبق على قيد الحياه من بين ١٢٤ يسوعياً زج بهم فى السجن قبل ثمانية عشر عاماً سوى خمسة وأربعين (٣٣) . ورفض خمسة من الاشراف الذين أدينوا بتهمة الاشتراك المزعوم فى مؤامرة قتل يوسف أن يرحوا السجن حتى تعلن براءتهم رسمياً .

وكان لمشهد ضحايا عداء بومبال المفرج عنهم ، ولنبأ تحريق تريفاريا ، أثرهما فى تفاقم كره الشعب لبومبال إلى حد لم يعد يجرؤ فيه على الظهور علانية . وفى أول مارس أرسل إلى الملكة ماريا كتاباً يستقيل فيه من جميع وظائفه ويستأذن فى الاعتكاف فى ضيعته بمدينة بومبال . وطالب

الاشراف المحيطون بالملكة بسجنه وعقابه ، ولكن حين تبين لها أن جميع القوانين التي استنكرتها كان قد وقعها الملك السابق ، قررت أنها لا تستطيع عقاب بومبال دون أن تلتطخ أمام الناس ذكرى أبيها . فقبلت استقالة الوزير وسمحت له بالاعتزال في بومبال ، ولكنها أمرته أن يلزمها وفي ٥ مارس غادر لشبونة في عربة خفيفة مستأجرة آملا أن يفلت من أنظار الناس ، ولكن بعضهم تبينه فحصبوا عربته ولكنه هرب منهم . ولحقت به امرأته عند مدينة أوبرس ، وكان يومها في السابعة والسبعين .

والآن وقد غدا مواطنا عاديا تكاثر عليه الهجوم من كل صوب بدعاوى تطالبه بديون أغفل سدادها ، وأضرار أوقعها بالشاكين ، وممتلكات استولى عليها دون تعويض أصحابها تعويضا كافياً . وحاصروا المحضرون أبوابه في بومبال بسلسلة من الأوامر القضائية . كتب يقول « ما من دبور أو بعوضة في البرتغال إلا طارا إلى هذه البقعة النائية وطنا في أذنى . وساعدته الملكة بأن واصلت اجراء الراتب الذي كان يتقاضاه وزيراً عليه مدى الحياة وزادت عليه معاشاً متواضعاً . بيد أن اعداء لا حصر لهم الحوا على الملكة في تقديمه للمحاكمة بتهمة الانحراف والحيانة . وقد اتخذت اجراء وسطا بسماعها للقضاة بأن يزوروه ويسائلوه في أمر هذه التهم . فظلوا يحققون معه ساعات كل مرة على مدى ثلاثة أشهر ونصف حتى التمس الدكتاتور العجوز الرحمة . وأجلت الملكة التصرف في تقرير الفحص ، آملة أن يعفيها موت بومبال من هذا الحرج ، وسعت في الوقت نفسه إلى تهديته خصومه بأن أمرت باعادة محاكمة المتهمين الذين أدينوا بالاشتراك في محاولة اغتيال أبيها . وأيدت المحكمة الجديدة الحكم بذب دوق أفرو وثلاثة من خدمه ، ولكنها برأت ساحة باقي المتهمين أجمعين وأعلنت براءة الطابوريين . وردت كل ألقابهم وممتلكاتهم للأحياء منهم (٣ ابريل ١٧٨١) . وفي ١٦ أغسطس أصدرت الملكة مرسوما يدين بومبال « مذنباً بجرائم شائنة » ويضيف قراراً بتركه آمناً في منفاه محتفظاً بثروته مادام قد التمس الصفح .

وكان بومبال يمضى حثيثا إلى مرض الموت ، فقد غشى جسده كله تقريبا قروح صديدية يبدو أن سببها الجذام^(٣٥١) . ومنعه الألم من النوم أكثر من ساعتين في اليوم ، وأضعفته الدوسنتاريا ، وأقنعه أطباؤه بشرب حساء مصنوع من جلد الثعابين ، وكأنما أرادوا أن يزيدوه عذابا على عذاب . وتمنى الموت ، وتناول الأسرار المقدسة ، وانتهت آلامه في ٨ مايو ١٧٨٢ وبعد خمسة وأربعين عاما ، وقفت بقبوره جماعة من اليسوعيين كانت تجتاز المدينة ، وتلت الجماعة ، بشعو الانتصار والرافة ، صلاة جنائزية تطلب الراحة لنفسه .

* * *